الاستاذ: بلواهم عبد الحليم

الطالبة: بدة فوزية

الجامعة: 8 ماي 1945–قالمة

عنوان المداخلة: الثقافة بين ناصيف نصار وطه عبد الرحمن من القومية الى الكونية

الملخص:

ارتبطت القومية منذ عصر النهضة العربية بمسالة الثقافة التي تتجسد خاصة في اللغة والدين والتاريخ، كونها السبيل الوحيد تبنى عليه القومية لتحقيق الوحدة العربية، غير ان هذه القومية حصرت الثقافة في حدود الامة العربية وكأنها ثقافة لا يمكنها تجاوز حدود الامة العربية نحو الامم الاخرى، وهذا ما نلمسه في فلسفة ناصيف نصار القومية الذي نظر الى الثقافة على انها من مقومات الامة ولكل امة ثقافتها الخاصة، غير ان موقف ناصيف نصار لقي من يعارضه في اوساط الفكر العربي المعاصر انه المفكر المغاربي طه عبد الرحمن الذي اراد ان يقدم مفهوم جديد للثقافة الاسلامية من اجل بعثها نحو الكونية حيث يرى ان الثقافة الاسلامية ثقافة رغم خصوصيتها الا انها ثقافة كونية لأنها تحمل في ثناياها كافة المؤهلات التي تجعل منها ثقافة كونية لأنها ثقافة مستمدة ن الدين الاسلامي كدين ملكوتي غايته الانسانية جمعاء

تهدف هذه الدراسة الى الوقوف على ماهية الثقافة العربية الاسلامية عند كل من طه عبد الرحمن وناصيف نصار مع ابراز موقف كل منهما من الخصوصية والكونية وان كان من الممكن نقل الثقافة من مجال الامة الاسلامية نحو الكونية ام ان الثقافة الاسلامية ثقافة خاصة بالأمة الاسلامية باعتبارها مصدر هويتها.

الكلمات المفتاحية :

الثقافة– الخصوصية– الكونية– الدين– الاخلاق– العالمية .

مقدمة

الثقافة من بين القضايا التي نالت اهتمام مفكري العرب خاصة في الزمن الراهن نتيجة لما احدثته العولمة من تصادم بين الثقافة الإسلامية العربية بالثقافة الغربية الاوروبية والامريكية، فهذا التصادم دفع بهم الى اعادة النظر في الثقافة التي ترتكز عليها جملة من الثوابت اهمها اللغة لان المساس بالثقافة من شانه ان يؤدي الى محو هوية الشعوب، فان كانت العولمة تسعى الى بناء ثقافة عالمية ذات بعد كوني يحمل الثقافة الغربية فان هذا الوضع ثار ضده العديد من المفكرين العرب امثال ناصيف نصا وطه عبدالرحمن بالرغم من ان لكل منهمارؤية مختلفة ترتكز على تصور مخالف لمسالة الثقافة التي تعد عند كليهما مصدر الهوية العربية والاسلامية.

عادة ما يطرح تساؤل حول الاسباب التي جعلت من الثقافة الغربية ثقافة عالمية لها حق الانتشار في العالم مما يجعلها ثقافة كل الشعوب بالرغم من انها ثقافة بلدان غربية برزت نتيجة تجمع قومي لمجموعة من الدول توحدها عوامل اجتماعية ولغوية ودينية الا ان الثقافة الكونية التي اسس لها الغرب لقيت رفض كبير في الابحاث والدراسات العربية والاسلامية بالرغم من ان بعض هذه الابحاث لا تقف ضد الكونية بل تؤسس لكونية مختلفة ذات بعد ديني اسلامي بالدرجة الاولى وهذا ما نلمسه في كتابات طه عبد الرحمن التي تحمل دعوة صريحة الى الوصول بالثقافة الاسلامية الى مرتبة العالمية كون ان هذه الثقافة تحمل في طياتها ما يؤهلها لتنتشر في العالم بناءا على ما تحتوي عليه من قيم ومبادئ اخلاقية تجعل منها كونية وفي مقابل ذلك نجد ان هناك من رفض فكرة الكونية مؤكدا على الطابع القومي للثقافة وهذا ما دع اليه ناصيف نصار حيث رأى ان لكل امة ثقافة خاصة بها تجعلها متفردة وتميزها على غيرها من الامم،وعليه كيف يمكن للقومية ان تحول دون بلوغ الثقافة العربية مرتبة الكونية عند ناصيف نصار؟ وكيف تمكن طه عبد الرحمن من تجاوز الطرح القومي للثقافة نحو التأسيس لثقافة عربية اسلامية كونية؟

الثقافة والقومية عند ناصيف نصار:

يعد ناصيف نصار من بين المفكرين العرب الذين كانت لهم اهتمام واسع بمسالة الامة والقومية العربية، حيث الف في هذا المجال العديد من الكتب التي اراد من خلال ايضاح مفهوم الامة من اجل الدخول في مرحلة النهضة حيث تكون هذه النهضة موافقة لواقع الامة العربية لا مستعارة من الدول الاجنبية ومحاكية لها، ذلك لان الامة العربية لها من سيمات وخصائص تجعل نهضتها تختلف عن نهضة الامم الاخرى، ومنثن فان الامة العربية عبارة عن مجموعة من الدول التي توحدها القومية العربية التي تبنى عند ناصيف نصار على مسالة الدين كعامل اساسي في تحديد هوية

الامة العربية وان كان هناك من المفكرين من يرجع القومية الى اللغة والاقليم والنظام السياسي المعمول به وهذا ما وضحه ناصيف نصار في كتابه تصورات عن الامة العربية.

تشكل الثقافة في جانبها الديني احد المكونات الاساسية للقومية العربية عند ناصيف نصار، لأنه يرى بان الدين كعامل ثقافي له دور كبير في توحيد الامة العربية، وبالتالي فان ما يميز هذه الامة عن غيرها من الامم هو الدين الاسلامي وهذا ما نلمسه في قول نصيف نصار :" عندما تنظر الايديولوجية القومية الى الدين كجزء لا يتجزأ من التراث القومي، تنعقد بالفعل نفسه جملة علاقات بين الادين والايديولوجية القومية تنعكس على نظام القيم التي تتخذها الايديولوجية القومية سببا واداة لصيانة هويتها ولتحقيق تطلعاتها"[1]، اي ان الدين يشكل الهوية الثقافية للامة العربية وكذلك تتجلى من خلاله القومية العربية.

يرى ناصيف نصار ان لكل امة هوية ثقافية تميزها عن غيرها من الامة لأنه لا توجد امة واحدة بل مجموعة من الامم حيث يقول : " الارض ليست كلها امة واحدة، بل هي امم مختلفة المصالح متضاربة المذاهب ... ولكل واحدة من هذه الامم مصالح تناقض مصالح رفيقتها وبعضها اعداء لبعض"[2] وهذا الاختلاف بين الامم تصنعه الهوية الثقافية مما يجعل الخصوصية الثقافة عنصر اساسي في فلسفة ناصيف نصار القومية يقف كحائل دون تأسيس ثقافة عالمية بالرغم من ان ناصيف نصار لا يلغي الانفتاحالثقافي لكن هذا الاخير لا يعني تذويب ثقافة الانا في ثقافة الاخر ، فهذا الاختلاف هو افضاء الذي تتكون فيه الثقافات دون ان تلغي بعضها البعض و" رفض الاختلاف عن الاخر هو رف الخروج من الانا، او من النحن التي تندفع معها الانا، ومحاولة ابتعاد عن خطر الوقوع في وضع الدونية"[3] لان الاختلاف عند البعض يجعله يشعر بالدونية تجاه ذاته مما يكون نظرة احتقار للنفس حيث يحملها هذا الاحتقار الى التبعية للآخر كونه افضل من الانا مما يجعله نموذج يقتدى به.

ان ناصيف نصار من خلاله دعوته لنهضة عربية ثانية الى عدم التبعية للغرب، حتى وان كان هذا الغرب يمثل مركز قوة ، حيث يرفض بقوة الغزو الثقافي للعولمة ويعتبرها لأنها تسعى الى فرض تنميط ثقافي واحد وتعميمه على كافة الشعوب مما يجعلها ظاهرة " حضارية كونية لا يمكن فصل ابنيتها الاقتصادية الانتاجية والتجارية الاستهلاكية، عن ابنيتها الثقافية الفلسفية والعملية والتكنولوجية والقانونية والاعلامية"[4]، اي ان العولمة تحمل في ثناياها الكونية لكن الثقافة التي تكون سائدة في خضمها هي الثقافة الغربية وهذا ما يجعلها تصطدم مع الخصوصيات الثقافية للشعوب عبر العالم مما يخلق لنا العديد من الثنائيات المتقابلة حيث يقول ناصيف نصار عن العولمة في طابعها الكوني انها انتجت لنا " مصطلحات عدة، متقابلة، كالمركز والاطراف او كالبلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة، او كالأصالة والاغتراب، او كالخصوصية والكونية، الا ان المحتوى واحد، وهو يعبر اجمالا عن ثنائية ذات نزعة انفصامية"[5]اي ان

العولمة بالرغم من غايتها المتمثلة في ايصال الانسانية الى مستوى من العالمية الا انها خلقت في صميمها العديد من الانفصالات وهذه بدورها تمثل خطرا عليها.

ان العولمة القائمة على النظام الرأسمالي لن تتمكن بالرغم من ما حققته من تقدم اقتصادي من توجيه الثقافة نحو العالمية هذا لان الخصوصية الثقافية التي بدورها تمثل هوية الشعوب سترفض السير في ركبها وبالتالي فان هذا الوضع الحضاري الجديد الذي تحاول العولمة فرضه على شعوب العالم سيلقى رفض عنيف من طرفها، حيث يقول ناصيف نصار" لا يعني ان البناء الحضاري الرأسمالي سوف يلغي بالضرورة جميع الخصوصيات والفوارق بين المناطق الحضارية والثقافات القائمة حتى اليوم على سطح الكرة الارضية"[6]، وعليه فان الانخراط في العولمة لا يعني التخلي على الخصوصية الثقافية ولا محو هوية الانا في هوية الاخر واكتساب ثقافته، بل ان الوجود الثقافي لكل امة يظل هو الركيزة التي تنطلق منها الامة نحو اثبات وجودها وبناء ذاتها لذا يقول ناصيف نصار " يمكن ان ننظر الى حياة المجتمع على انها تعبير عن المحاولة التي يقوم بها الانسان من حيث هو كائن ينزع نزوعا واعيا الى تحقيق نفسه ضمن شروط مكانية وتاريخية معينة، وتتمظهر هذه المحاولة في ما يمكن ان نسميه البناء الثقافي العام، الذي يشمل المعتقدات الدينية على اختلاف انواعها والظاهرات العقلية والفنية والشرائع و التقاليد"[7].

ان العالمية ان كانت تقتضي التبعية للآخر، من اجل مواكبة التطور لذي وصل اليه فان الامة العربية مطالبة بتحقيق هذا التطور دون ان تقع في التبعية للآخر ذلك لان هذه الامة لها مقومات تنفرد بها عن غيرها من الامم، فالخصوصية الثقافية تقف كحاجز امام الكونية التي يقر ظاهرها وباطنها بانها كونية امبريالية لا تخدم الا المصالح الغربية،

مفهوم الثقافة عند طه عبد الرحمن :

يحتل موضوع الثقافة حيز كبير من اهتمامات المفكر المغاربي طه عبد الرحمن ذلك لان الثقافة لا تقتصر على تحديد هوية الامة الاسلامية فقط بل لان الثقافة تعد المحرك الذي ينبغي ان تعتمد عليه هذه الامة في تغيير واقعها و الاتجاه به نحو الكونية لما تحمله من سيمات اخلاقية وقيمة تؤهلها لان تكون كونية وهذا ما نلمسه في تعريف طه عبد الرحمن للثقافة حيث يقول:" هي جملة القيم التي تقوم الاعوجاجات الفكرية والسلوكية داخل الامة على الوجه الذي يحدد اتصال الفكر والسلوك بأسباب هذه القيم في عالم الآيات، وبالقدر الذي يمكن هذه الامة من استرجاع قدرتها على الاصلاح والابداع، طلبا لتنمية الانسان والارتقاء به في مراتب الكمال العقلي والخلقي "[8] وبالتالي فان الثقافة هي عماد الامة لأنه يجتمع فيها الفكر بالعمل مما يؤدي الى النهوض بالأمة وولوج عالم التدم بحيث يكون التقدم الذي تقوده

الامة الاسلامية مخالف لذلك التقدم الكوني الذي قاده الغرب مؤسسا لما اطلق عليه العديد من المسميات كالعولمة والحضارة العالمية وغيرها من المسميات التي تصب في بوتقة الكونية كتجاوز لمسالة الخصوصية او القومية المنتشرة في العديد من مناطق العالم، لكن طه عبد الرحمن يطرح في تساؤل جد مهم وهو كيف يعقل ان تثقف امة متخلفة كأمتنا امة مقدمة كأمة الغرب؟

يجيب طه عبدالرحمن عن هذا التساؤل بانه يمكن ان تقود الامة الاسلامية رغم تخلفها بقية الامم ذلك لان هذه الامة فيها اشخاص وان كان عددهم قليل لهم قدرة على اخراج الثقافة الاسلامية من المحلية والقومية وايصالها الى الكونية لانهم تمكنوا من اسباب الثقافة بشكل لائق، كما يرى ايضا طه عبد الرحمن ان التخلف على نوعين فهناك تخلف لم يسبقه تحضر و تخلف سبقه تحضر وهذا النوع الاخير هو الذي يعكس وضع الامة الاسلامية التي" تمتلك قيما ومبادئ ولو انها معطلة في الحال قد تعود الى عطائه، و تنتفع بها الامم المتقدمة متى حصل تجدد العمل بها"[9] اي ان الامة الاسلامية لها قيم ذات بعد عالمي الا ان هذه القيم لا بد من احيائها واعادة بعثها من جديد حتى تواكب ما يحدث الان في العالم.

يدعو طه عبد الرحمن الى النظر في ماهية التقدم ذلك لان التقدم لا يتصف بالمطلقية بل الامم قد تتقدم في مجال وتخفق في مجال اخر و هذا هو حال الثقافة الغربية التي رغم تقدمها الا انها لم تستوعب القيم التي تجعلها تتجاوز معظم الازمات التي وقعت فيها بالرغم من تقدمها العلمي والصناعي والتكنولوجي، فغياب القيم المسددة اوقعها في ما اصبح اليوم يطلق عليه بأزمة الانسان المعاصر و بالتالي فان التقدم الغربي تقدم نسبي والثقافة الغربية هي الاخرى ثقافة نسبية و بهذا يمكن القول مع طه عبد الرحمن " ميزان الثقافة ليس هو الة الاقتصاد، ولا هو حتى الة العلم والتقنية متى كانت مقصودة لذاتها، الا ترى كيف ان هذه الالة نفسها قد تنتفي فيها الاخلاق فتصير وبالا على الانسان"[10] وبناءا على هذا نجد ان التقدم المادي للحضارة الغربية لا يمكن الاعتماد عليه في تقويم بقية الامم خاصة اذا تعلق الامر بالجانب المعنوي المتمثل في ثقافة الأمم وقيمها لذا فان " الثقافة ليست مجالا واحدا، بل مجالات عديدة، والامم تتفاضل في نصيبها من هذه المجالات، فقد تتقدم امة في مجال تتخلف فيه امة اخرى، وايضا تتخلف فيما تتقدم فيه هذه"[11] والامة الاسلامية شهدت تقدما مذهلا في مجال الثقافة من خلال تشبعها بروح الدين الاسلامي الذي يعد المكون الاساسي للثقافة العربية الاسلامية ومصدرا لقيمها الاخلاقية.

واقع الثقافة الاسلامية عند طه عبد الرحمن

يرى طه عبدالرحمن ان الثقافة الغربية تسعى الى فرض وجودها فب الالم انطلاقا من ما حققته من تقدم على المستوى المادي حيث تسعى الى فرض قيمها على شعوب العالم و هذا ما قادها الى التصدي الى الثقافة الاسلامية التي جعلت من الدين الاسلامي المصدر الاول للتشريع الاخلاقي، الغرب لكي تكون ثقافته كونية كان عليه ان يقوم بتشويه الثقافة الاسلامية من خلال الاعتماد على جملة من الاليات التي حصرها طه عبد الرحمن في اربع عناصر اساسية تمثلت في التنميط الثقافي، التخريب الثقافي، الاستتباع الثقافي، والتلبيس الثقافي.

1- التنميط الثقافي: يهدف الغرب من خلال سياسة التنميط الثقافي الى جعل العالم يسير وفق ثقافة واحدة هي الثقافة الغربية حيث يقول طه عبد الرحمن في هذا الصدد "يسعى الانسان الكوني ... بكل ما اوتي من قوة الى فرض رؤيته الخاصة ومعاييره الثقافية على باقي الامم، معمما عليها نمطه الخاص في التفكير والسلوك، وذلك دعما لهيمنته الثقافية في ظل هيمنته الاقتصادية"[12]، اي ان الغرب لم يكتفي بالهيمنة الاقتصادية في فرض وجوده بل سعى ايضا الى نشر ثقافته ومن ثمة خلق انسان كوني ذو توجه واحد اقتصاديا وثقافيا.

2- التخريب الثقافي: ويقصد منه ان الغرب يسعى الى تخريب ثقافة الامم الاخرى حتى ينفرد بالثقافة على الساحة العالمية من خلال تشويه ثقافة الشعوب الاخرى خاصة الثقافة الاسلامية التي ينظر اليها في الغالب على انها ثقافة ارهاب وتخويف وتخلف وبالتالي شعوبها بربر بعدين كل البعد عن الحضارة ويعد الاسلام في الدراسات الغربية العامل الاول في تخلفهم الحضاري والثقافي حيث قام بالتشكيك " في ثوابت العقدية للدين الاسلامي، والتطاول على مقدساته بدعوى تحري النزاهة والموضوعية، وكذا الطعن في الحقائق التاريخية التي تعلقت بالحضارة الاسلامية بدعوى التزام مقتضيات النقد العملي"[13]

3- الاستتباع الثقافي: يعد من بين اهم الاسباب الت حالت دون تقد الامة العربية الاسلامية، ذلك لان الغرب سعى دوما الى الحاق الامة العربية به من الناحية الاقتصادية والسياسية وكذلك الثقافية وهذا ما اطلق عليه العرب اسم التثاقف الذي يتطلب الحوار الثقافي بين الثقافات لا اتباع ثقافة الاقوى دون انفتاحه عليها والدخول معها في عملية الاخذ والعطاء، فالاستتباع يعني الاخذ فقط دون التأثير في ثقافة الاخر، وبهذا فان " المراد هو امداد احدى الثقافتين للأخرى من غير ان يصح العكس، فتكون تابعة لها"[14]، وبالتالي فان هذه غاية الغرب من فعل العولمة الذي يسعى من خلالها الى جعل الدول لا العربية الاسلامية بالدرجة الاولى تابعة له ثقافيا لأنه ادرك ان الثقافة بما تحوي عليه من دين ولغة هي مصدر الهوية في البلدان العربية.

4- التلبيس الاخلاقي: يعد التلبيس الاخلاقي من اخطر مظاهر التثقيف الغربي ذو البعد الكوني لأنه يتربص بالقيم الاخلاقية للشعوب مما يسبب انهيار في سلم القيم لان الغرب لم يكتفي بالتأثير الاقتصادي بل يعتبره غير كاف

لتوجيه العالم لذا ينبغي دعم الهيمنة الاقتصادية بالهيمنة الثقافيةالاخلاقية ، اي من خلال نشر القيم الثقافية الخاصة به ومحاربة ثقافة الشعوب الاخر، وهذا ما قام به الاستعمار الغربي اثناء تواجده في الدول المستعمرة ومازال يقوم به اليوم من خلال العولمة التي نقلت التلبيس الاخلاقي الى "طور اسوا من سابقه، فبعد ان اخرج لنا الانسان المادي الدنيوي، صار في مكنته الان ان يخرج لنا انسانا غريزيا اباحيا حتى كانه بهيمة عجماء"[15].

ان هذه الانماط الاربعة التي استند اليها الغرب في التأسيس للكونية الثقافية هي عبارة عن مفاسد ثقافية في نظر طه بد الرحمن حيث يرى بأنها تهدد استمرار الثقافة العربية الاسلامية كما انها لا يعكس جوهر الانسان و انما تقود الانسان الى التخلي عن انسانيته لأن انسانية هذا الأخير تكمن في قيمه الاخلاقية، لأن الاخلاق هي التي تميز الانسان عن بقية الكائنات الحية التي تندرج معه تحت جنس الحيوان وبالتالي تكسبه تميزه عنهم، فالحضارة الاسلامية وحدها تتميز بالقيم الاخلاقية التي تصلح لكل مكان وزمان دون ان تعطي للفوارق العرقية والدينية واللغوية اية اهتمام، لأنها مستمدة من الدين الاسلامي الذي حارب هذه الفروقات من ظهوره في شبه الجزيرة العربية.

الثقافة الاسلامية من القومية الى الكونية عند طه عبد الرحمن

ان الثقافة الاسلامية بالرغم من انها تحمل القيم التي تتصف بالكونية الا انها لم تكن هي الثقافة السائدة في الزمن الراهن وذلك يعود بالدرجة الاولى الى تلك المفاسد المتمثلة في التنميط الثقافي والتلبيس الاخلاقي والاستتباع الثقافي والتخريب الثقافي الذي مارسه الغرب في حق هذه الثقافة، حيث يرى طه عبد الرحمن ان السبيل الى بعث الثقافة الإسلامية من الخصوصية الايمانية نحو النظر الملكوتي الذي يتميز بالكونية لان الاسلام كدين يحمل في ثناياه هذه النظرة الكونية التي يشترك فيها جميع البشر "ويؤدي تدبر المسلم للآيات الكونية الى تبيين ان الناس جميعا يشتركون في التدبر، اي ان النظر الملكوتي الكوني يفضي الى كونية النظر الملكوتي"[16] ، وعليه يمكن القول انه اذا كان هذا جوهر الاسلام الذي تستمد منه الثقافة الاسلامية فإنها لم تحقق هذا البعد الكوني الملكوت والسبب في ذلك يعود الى تلك المفاسد الثقافية التي تتطلب التصدي لها وذلك من خلال:

1- درء الاستتباع الثقافي:

يرى طه عبدالرحمن ان الاستتباع الثقافي من بين المفاسد التي تحول دون بروز الثقافة الاسلامية على المستوى الكوني وان التصدي له يكون من خلال اللجوء الى التحرر الثقافي وعدم التقوقع على الثقافة الاسلامية باعتبارها المحدد لهوية الفرد المسلم لان التحرر يقود الى عدم احتقار ثقافات الاخر كما هو الحال في الثقافة الغربية التي تقيم التمييز بين الثقافات من اجل اثبات تميزها الثقافي، وعدم تكافؤ الثقافات لان

ثقافتها تعبر عن تحضرها ورقيها الا انها في الواقع ما هي الا ثقافة غلب عليها البعد المادي الذي افرغها من محتواها المعنوي المتمثل في القيم الاخلاقية الروحية.

أ-التحرر الثقافي : يؤكد طه عبد الرحمن ان الشعوب الاسلامية بالرغم من انها حققت التحرر الاستعماري الا انها لم تتملص من السيطرة الثقافية الاستعمارية التي خلفها المستعمر في اوطانها، فهذه الامة مطالبة اليوم باسترداد حريتها الثقافية ،لان التحرر الثقافي لا يقل اهمية على التحرر السياسي، حيث يقول في هذا الصدد " ينبغي ان يتولى التثقيف الاسلامي ترسيخ مفهوم التحرر الثقافي في عقول الجمهور الكوني بما يجعله يلقى من المشروعية والتأييد والنصرة في اوساطه ما اصبح يلقاه فيها مفهوم التحرر السياسي"[17]، الا ان تثقيف هذه الشعوب يفترض ان يكون مسبوق بوعي جماهيري على المستوى الوطني والاقليمي والكوني يعترف بحق هذه الشعوب في تقرير مصيرها الثقافي، لذا يدعو طه عبد الرحمن الى ضرورة وضع اتفاقيات " او مواد في مواثيق دولية تنص على حق شعوبها جميعا في تقرير مصيرها الثقافي كما تقرر مصيرها السياسي"[18] من اجل ان تلقى الدعم و التأييد الكوني لحق الشعوب في التحرر الثقافي.

ب-التكافؤ الثقافي: يرى طه عبد الرحمن ان الثقافة الاسلامية قادرة على تحقيق الكفاءة الثقافية على مستوى كوني ذلك لان الكفاءة الاقتصادية لا تتطلب بالضرورة الكفاءة الثقافية حيث يقول:" قد يكون الشعب الواحد كفئا ثقافيا من غير ان يكون كفئا اقتصاديا كما انه قد يكون كفئا ، اقتصاديا من غير ان يكون كفئا ثقافيا"[19]، بمعنى ان الكفاءة الثقافية غير مرتبطة بالكفاءة الاقتصادية و الامة الاسلامية رغم تخلفها الاقتصادي الا انها تتميز بالكفاءة الثقافية لأنه الكفاءة ملكوتية روحية بالدرجة الاولى على عكس الكفاءة الاقتصادية التي هي كفاءة ملكية لأنها تستند الى المادة وعليه فان الكفاءة تستلزم مبدا التكافؤ الذي يقتضي المنافسة بين الشعوب وليس الغاية من هذه المنافسة تحقيق التطابق الثقافي بل ان التكافؤ يفرض المغايرة " فالشعب الواحد قد يكافئ غيره في جوانب ثقافية ليست من جنس الجوانب الثقافية التي يختص بها هذا الغير، ولا هو تكافؤ مقداري، وانما تكافؤ معياري: فقد يكون القليل من ثقافة شعب ما يكافئ الكثير من ثقافة شعب اخر لظهور غور معانيه"[20]

2- درء التخريب الثقافي:

اذا كان التخريب الثقافي يقوم على تشويه ثقافة الشعوب الاخرى و التي على راسها الثقافة الاسلامية كعدو اول للغرب فان التصدي لهذا التخريب يكوم من منطلق مواجهة التظلم الثقافي و الاعداد الثقافي.

أ–التظلم الثقافي: لقد تعرضت الثقافة الاسلامية الى العديد من المظالم الاجنبية مما جعلها تقف في الهامش بالرغم منانها تحمل نواة الثقافة العالمية، فالمثقف الاسلامي اليوم لا بد له من ان يقف في وجه هذه المظالم ويسعى الى رد الاعتبار للثقافة الاسلامية والدفاع عنها على المستوى العالمي حتى يعلم الجمهور الكوني " ان من حق الشعوب التي يعتدى على تاريخها ودينها ومقوماتها الثقافية، فعلا او قولا، ان تشكو الظلم الذي تتعرض له، وتطالب بأخذ الحق لها وتعويضها عن الاذى الذي لحقها"[21]، وهذا الامر يتطلب انشاء مؤسسات ولجان تسهر على الدفاع عن الحقوق الثقافة للشعوب.

ب–الاعداد الثقافي: ان سياسة التشنيع والتشويه التي يمارسها الجمهور الكوني ازاء الثقافات الاخرى يمكن ايضا ان تمارس على ثقافته، فيجب على هذا الجمهور ان يكون على تمام الادراك بهذا الوضع الذي يعد بمثابة مأزق وقع الغرب فيه لأنه خلق بذلك المضاد له ثقافيا اشد تمسكا بثقافته التي تحمل قيما اكثر روحية من القيم المادية التي يريد جعلها عقيدة الانسان الكوني، وهذا ما يدفع التثقيف الاسلامي الى تبيين للجمهور الكوني ان الثقافة الاسلامية قادرة على اثبات وجودها في العالم بما تحمله من قيم تستوعب الانسان المسلم وغيره دون ان تلغي وجود الاخر، وهذا الامر يتطلب دراسة نقدية للثقافة الغربية التي تدعي الكونية من خلال الاعتماد على " اقوى مناهج التحليل والمقارنة والاستدلال التي هي قوام العقل الملكي، مسنودة الى وسائل النظر الموسعة التي هي قوام العقل الملكوتي"[22]

3– درء التنميط الثقافي

ان كان التنميط الثقافي يسعى الى جعل النموذج الغربي هو السائد في العالم اليوم فان درء مفاسده تكون من خلال التعارف الثقافي والتكامل الثقافي

أ–التعارف الثقافي: ان رغبة الغرب في فرض نموذج ثقافي واحد وجعله ثقافة عالمية تستقر تحتها كافة الشعوب لا يكف الا على ذلك الاكراه الذي يمارس على ثقافات الشعوب الضعيفة، فالثقافة الكونية لا تكون بالإرغام والاقصاء، بل ان الكوني هو فضاء تتعارف فيه الثقافات دون ان تلغي بعضها البعض، وان كان الجمهور الكوني ينظر الى التعدد الثقافي على انه يهدد هيمنته الاقتصادية المادية فان التأثير المعنوي الناتج عن قمع الثقافات اقوى بكثير من التأثير المادي وعيله فان مبدا التعارف مقتضاه" ان الشعوب لم تخلق من اجل اقاص بعضها بعضا، فاصطدام بعضها ببعض، وانما من اجل التعرف بعضها الى بعض، اقرارا بحقه في الوجود والاختلاف، بل اقرارا بقدرته على الافادة والعطاء، فضلا عن الدخول في التعاون على مكارم الاخلاق"[23]

ب–التكامل الثقافي: يرى طه عبد الرحمن ان الغاية من التكامل الثقافي ليس فرض ثقافة على الثقافات الاخرى ولا السعي الى ايجاد تنميط ثقافي واحد بل ان العالمية تعني ان تجتمع فيها كل الثقافات ليس من اجل احداث الصراع والنزاع بل من اجل ان تكمل بعضها البعض لان كل ثقافة تحمل جملة من القيم والرؤى التي لا يمكن العثور عليها في الثقافات الاخرى حيث يقول طه عبد الرحمن " فقد يجري بين ثقافتين فاكثر تفاعل او تلاقح يثمر فيهما ما لم يكن في اصلهما، فتسير الثقافات قدما الى تحقيق الكمال المنشود في رؤيتها الجامعة"[24] وبالتالي فاجتماع هذه الثقافات يتولد عنها رؤى اوسع تستوعب الانسانية اجمع على المستوى العالمي.

4– درء التلبيس الاخلاقي: ان الاخلاق التي حملتها العولمة و ارادت ان تجعلها اخلاق عالمية هي اخلاق قاصرة لا تعبر عن انسانية الانسان بالمعنى الصحيح لأنها اخلاق مادة، وان كان الجمهور الكوني يعتبرها اخلاق انسانية الا ان جوهرها يثبت عكس ذلك ومن اجل التصدي لهذه الاخلاق التي تريد العولمة نشرها في جميع انحاء الالم يجب تديين الثقافة وتخليقها .

أ–تديين الثقافة: يرى طه عبد الرحمن ان الدين مكون اساسي للثقافة وفصل الثقافة عن الدين سيؤدي الى تكوين ثقافة ملكية كما هي سائدة في المجتمعات الغربية، التي ابتعدت عن الدين مما جعل ثقافتها ثقافة مادية لا تأخذ بالحسبان ذلك الجانب الملكوتي الروحاني كمرجع اخلاقي لان الباحث اذا تتبع مسار التاريخ الثقافي سيجد ان الدين كان مرجعية اساسية في بناء الثقافة وصياغة القيم الاخلاقية وهذا ما نلمسه في قول طه عبدالرحمن " كلما كانت هذه القيم التي يقف عليها الناظر في هذه الآيات موافقة للقيم الروحية التي دعا اليها الدين الالهي واخبر بوجودها في فطرة الانسان، كانت ادعى الى الايمان واحق بالعمل على مقتضاها، لأنها ابلغ في الروحانية، ولا روحانية تعلو على روحانية هذا الدين"[25]

ب–تخليق الثقافة: ان الثقافة تحمل في ثناياها جملة من القيم لان الحضور المعنوي القيمي فيها اقوى من الجانب المادي والثقافة بدون اخلاق لا يمكن ان ترقى الى مستوى الثقافة، بل ان صح التعبير ثقافة مؤقتة تزول بزوال المادة، لكن الغاية من الثقافة هي نسج قيم اخلاقية ايجابية لا تموت بموت النسان بل تكون صالحة لكل زمان ومكان ويعد الاسلام من اكثر الاديان التي تنطوي على مثل هذه القيم حيث يقول طه عبد الرحمن" القيم التي يتضمنها الاسلام لا تختص بقوم دون اخرين، مهما اختلفت اعتقاداتهم ولغاتهم واجناسهم وعاداتهم، ولا تختص بزمان دون اخر، مهما تقلبت اطوار الزمن وامتدت في المستقبل البعيد، ولا بمكان دون اخر، مهما تغيرت احوال المكان وامتدت الى عوالم اخرى قد يرتادها الانسان" [26]

خاتمة

مما تقدم يمكن القول ان الثقافة تحتل مكانة كبيرة في الدراسات العربية والاسلامية وهذا يعود الى الدور الذي تلعبه الثقافة كونها تشكل هوية الشعوب لعربية والاسلامية لذا نجد ان الكثير من المفكرين العرب يبدون تخوفا شديدا من العولمة لأنها تهدد بالدرجة الاولى ثقافتهم وبالتالي تؤثر على هويتهم التي تعد من الثوابت غير القابلة للتغيير والتغير والانفتاح الذي تدعو اليه العولمة يكاد يعصف بهذه الثقافة، تحت شعارات متعددة تعد الكونية من بينها، اي انها كما يرى ناصيف نصار من بين الشعارات الزائفة التي من شانها ان تقضي على الثقافة الاسلامية لان الوصول الى الكونية واعتماد ثقافة عالمية يعد من الامور التي لا تزال بعيد عن الواقع لان الامم بدون ثقافة لن يكون لها اي وجود، لان الامة تعرف من خلال ثقافتها، اما طه عبد الرحمن فانه يرى بان الامة الاسلامية ليست مطالبة باتباع الثقافة الغربية المؤسسة على النزعة المادية البراغماتية، بل ان الثقافة الاسلامية قادرة على بلوغ الكونية بشرط ان تكون هي القائدة لهذه الكونية وهذا لما تحمله من قيم ومبادئ اخلاقية تستوعب كل الانسانية لأنها ذات بعد معنوي روحي مستمدة من الدين الاسلامي كدين ملكوتي لا يستبعد الشعوب الاخرى بل يحاول احتواءها.

---

[1] ناصيف نصار، مطارحات للعقل الملتزم في بعض مشكلات السياسة والدين و الايديولوجية، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1986، ص 125[1].

[2] ناصيف نصار، نحو مجتمع جديد مقدمات اساسية في نقد المجتمع الطائفي، دار الطليعة، بيروت ، ط 5، 1995، ص75.

[3] ناصيف نصار، التفكير والهجرة من التراث الى النهضة العربية الثانية، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1997، ص 154

[4] ناصيف نصار، باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة، بيروت ، ط1 ، 2003، ص34

[5] ناصيف نصار، باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل،ص26.

[6] ناصيف نصار، باب الحرية انبثاق الوجود بالفعل،ص 35.

[7] ناصيف نصار، نحو مجتمع جديد مقدمات اساسية في نقد المجتمع الطائفي، ص 87.

[8] طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 ، 2005، ص87.

[9] طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص88.

[10] طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص88.

[11]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص88.

[12]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص84

[13]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص83.

[14]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص82.

[1515]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص85.

[16]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص29.

[17]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص90.

[18]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص90.

[19]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص90.

[20]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص91.

[21]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص91.

[22]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص92.

[23]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص93.

[24]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص94.

[25]طه عبد الرحمن، الحق الاسلامي في الاختلاف الفلسفي، ص95.

[26] طه عبد الرحمن، الحداثة والمقاومة ، معهد المعرف الحكمية، د . م ، ط 1، 2007 ، ص62.